



صورة الليل في شعر ابن بقي القرطبي (463-540هـ) (دراسة وصفية تحليلية)

عبد الله محمد النجم*

الملخص

هذه دراسة تُعنى بالوقوف على صورة الليل في شعر ابن بقي القرطبي، وإظهار أهم تقلبات هذه الصورة وأحوالها، وأبرز الأساليب الفنية الموظفة في ذلك، وقد استخدم الباحث خلال إجرائها المنهج الوصفي التحليلي، باستعراض عدد من مقطوعات الشاعر وأبياته وتحليلها بما يُبرز صورة الليل التي تكونت عند الشاعر وبحسب حالته النفسية أو العاطفية. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، كان من أهمها: تعدد صور الليل وتلونها في شعر ابن بقي وعدم استقرارها على حالة واحدة، إضافة إلى إجادة الشاعر في استثمار الليل كمكون طبيعي مُحيط في التعبير عن حالته وانفعالاته وبث ما يلاقيه من خلاله. الكلمات المفتاحية: الشعر الأندلسي، ابن بقي القرطبي، صورة الليل.

*طالب دكتوراة، جامعة العلوم الإسلامية العالمية. abdullahmohammad5648@gmail.com

1-المقدمة:

إن المتفحص للشعر العربي عموماً، يجد الليل قد شكل موضوعاً ثرياً اتخذته الشعراء ميداناً لتصوير خلجاتهم النفسية، وتأملاتهم الوجودية، وتجاربهم العاطفية، كما وظفوه وسيلةً للتعبير عن مكانن الحزن، والأنين، والحنين، والوجد، وقد ظلَّ الليل حاضراً في وجدان الشعراء منذ العصر الجاهلي حتى عصور الازدهار الحضاري، غير أنَّ حضوره في الشعر الأندلسي اتخذ طابعاً مميزاً، لما للأندلس من خصوصية بيئية وثقافية وروحية انعكست على أدبها ولغتها وصورها الشعرية.

فالشعر الأندلسي على وجه الخصوص، احتضن الليل واحتضنه الليل؛ إذ جاء محملاً بالدلالات الرامزة والرموز العميقة، فتجد الليل أحياناً يمثل السكون الذي يحتضن خلجات القلب، وتارةً يكون غطاءً لاجتماع المحبين، وقد يكون ممراً ونافذةً للهموم والأحزان، وهذا التنوع الدلالي يؤكد أن الليل لم يكن مجرد فضاء زمني للأحداث، بل عنصراً فاعلاً في تشكيل البنية الجمالية للنص الشعري، وعنصراً تعبيرياً يختزل المشاعر والرموز في آنٍ واحد.

لذلك تعرض الأدب الأندلسي عموماً، والشعر على وجه الخصوص لكثير من الدراسات الفاحصة والباحثة عن مكنوناته ودرره سواء في صورة الليل أو غيرها إذ "بدأت الدراسات الأدبية تتزايد في حقل الأدب الأندلسي، وهي تُلقي كثيراً من الضوء على حقائقه الغامضة فكل باحث جاد يخطو خطوة لاحقة في الطريق، ويُقدم من الآراء ما يكون موضع التحليل والتمحيص، وذلك كسب كبير"، وبالتالي لا يمكن الإحاطة بهذا الأدب الممتد والواسع والغني والكثيف من خلال دراسة أو كتاب أو حتى موسوعة! وإنما يكفي الوقوف على أحد أعلام هذا العصر في باب الشعر، وسبر أغوار نصوصه ومقطوعاته وقصائده، وبيان تجليات الليل وأشهر صورته وحالاته بما يخدم الدراسة، وتحقيق الفائدة المرجوة منها.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، اختار الباحث الشاعر ابن بقي القرطبي ليكون أنموذجاً في إجراء هذه الدراسة، لتتناول حضور الليل ودلالاته في نصوصه الشعرية، من خلال تحليل بعض المقطوعات التي تجلت فيها صور الليل عند الشاعر، إذ جاء شعره حافلاً إلى حدٍ ما بصور الليل، مسكوناً بمشهدياته وعبراته، حاملاً مضامين نفسية وعاطفية متنوعة.

وتهدف الدراسة إلى الوقوف على تمثيلات الليل في شعر ابن بقي القرطبي، واستحضار الأبعاد الجمالية والدلالية التي يجلبها هذا الحضور، من خلال استقراء بعض النماذج الشعرية المختارة، وتحليل صور الليل وعلاقته بالحالة الشعورية للشاعر، وسيُتَّبَعُ الباحث في ذلك المنهج الوصفي التحليلي، الذي يسمح بقراءة النصوص في ضوء بنيته الفنية والدلالية.

كما تسعى الدراسة إلى الإجابة عن تساؤلات محورية مثل: كيف تشكّلت صورة الليل في شعر ابن بقي؟ وما رمزيته الجمالية والدلالية؟ وكيف أتقن ابن بقي استخدام الأساليب الفنية لتشكيل صورة الليل المختلفة؟ وهل كان الليل عند ابن بقي مجرد خلفية زمانية، أم فضاء شعرياً مستقلاً له أبعاده الذاتية المختلفة؟

من خلال هذه التساؤلات، تأمل الدراسة أن تسهم في تكثيف النظر لصورة الليل في شعر ابن بقي، وتبسيط الضوء على شاعر لم يحظَ بالعناية الكافية- في حدود معرفة الباحث- رغم ما في شعره من عمق وجداني وتعبير دقيق عن التجربة الأندلسية والشخصية.

أما الدراسات السابقة، فلم يجد الباحث- في حدود اطلاعه ومعرفته- دراسة أُجريت في ذات الموضوع، وهو ما شكل دافعاً إضافياً لمتابعة الدراسة والبحث للخروج بجديد يُضاف إلى الحقل المعرفي في هذا الباب، لكن هناك دراسة متعلقة بالشاعر وحياته وشعره، وبعيدة عن موضوع هذه الدراسة وبإمائها، وهي بعنوان: (ابن بقي القرطبي حياته وشعره)¹ للدكتور محمد مجيد السعيد- جامعة البصرة (1978)، وقد قامت الدراسة على عرض حياة الشاعر، ثم جمع مقطوعاته الشعرية وردها إلى المصادر التي احتوتها مع شيء من التحليل في موضوعاته الشعرية. لذلك، فإن هذه الدراسة اختلفت عن الدراسة المذكورة في وقوفها على شيء مخصوص لم يسبق التعرض له، وهو إظهار صورة الليل وتلونها من خلال الوقوف على بعض مقطوعات ابن بقي القرطبي، وبالتالي تسعى أن تكون إضافة جديدة في هذا الميدان عموماً، على أن الباحث يؤكد أنه لا كمال لمخلوق عدا عن كمال ما يصدر عنه! لذلك فإن هذه الدراسة لا تدعي الكمال في الإحاطة بالشاعر في هذا المجال بقدر ما تكون بصمة وإثراء وأرضية لما يتبع من دراسات وبحوث. ودراسة أخرى بعنوان: (أثر الشعر المشرقي في شعر ابن بقي الأندلسي)² للباحث: شارف عامر، جامعة محمد خيضر (2021) إذ اعتنت الدراسة بالملامح المشرقية التي تُلحظ في الشعر الأندلسي، متخذة الشاعر ابن بقي الأندلسي أنموذجاً لذلك، والوقوف على تأثيره بالشعر المشرقي من ناحية الأساليب والمفردات والمعاني والأغراض، ابتداءً بشعراء العصر الجاهلي الذين تأثر بهم

ابن بقي وحتى شعراء العصر العباسي، وهي دراسة مع أهميتها في بابها، لكنها لم تُعنى بفكرة وقضية الليل وصوره المختلفة في شعر ابن بقي.

وإذا كان لكل طريق من بعض العقبات والمعوقات، فإن حال الباحث خلال إجراء الدراسة لم يكن بعيداً عن ذلك؛ إذ كانت العقبة الكبرى هي عدم توفر ديوان مطبوع* للشاعر ابن بقي بين يدي الباحث أو حتى نسخة إلكترونية، رغم العديد من محاولات البحث! لكن الله أعان على استجماع قصائد ومقطوعات وموشحات الشاعر المطلوبة للدراسة، والمتناثرة في المصادر المختلفة، إذ كان أهم هذه المصادر: القلائد لابن خاقان (ت529هـ)، الذخيرة لابن بسام الشنتريني (ت542هـ)، والخريدة للعماد الكاتب (ت597هـ)، ونفح الطيب للمقري (ت1041هـ).

وقد جاءت الدراسة مُقسمة على: مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وثبت المصادر والمراجع، فأما المقدمة فقد اشتملت على توطئة للدراسة توزعت بين حديث موجز حول الليل، ثم حضور الليل في الشعر العربي عموماً والأندلسي خصوصاً، والمنهج المتبع في إجراء الدراسة، وأهمية الدراسة وأسئلتها، والدراسات السابقة، والصعوبات التي واجهت الباحث، وجاء التمهيد متضمناً التعريف بالشاعر ابن بقي القرطبي، وتوضيح مفهوم الليل في اللغة والاصطلاح، أما المبحث الأول، فقد كان بعنوان (الليل بوصفه ملتقى المُحِبِّين) حيث عرض فيه الباحث بعض المقطوعات الشعرية والأبيات لابن بقي، التي تمثلت فيها هذه الصورة ليل، وكان المبحث الثاني بعنوان (ليل الغربة والفقد والبعد) استعرض فيه الباحث موشحة للشاعر، وقد تبلورت فيها صورة أخرى ليل عند ابن بقي، قائمة على مشاعر الغربة وأنين الفقد والحنين والبعد، وثالث هذه المباحث، جُعل للوقوف على البنية الفنية لتشكيل صورة الليل عند ابن بقي، حيث وقفت الدراسة على عدد من الشواهد الشعرية التي تبرز مقدرة الشاعر وتفننه في استخدام الأساليب الفنية لإنتاج صور الليل المختلفة، ولا بُد لكل دراسة من خاتمة تتضمن أبرز نتائجها وأهمها، فكانت خلاصة القول والحديث والبحث والتمحيص، ثم ثبت المصادر والمراجع التي أفاد منها الباحث خلال مسيرة هذه الدراسة.

2-تمهيد:

في هذا الجزء من الدراسة حرص الباحث أن يُمهّد لموضوعها، ولو بشيء يسير يُشكل إحاطة عامة للمتلقي، ويُمكنه من الانطلاق إلى مفاصل الدراسة التالية ومحاورها وأجزائها، فكان هذا التمهيد مشتتاً على تعريف بالشاعر ابن بقي القرطبي وشعره، وأبرز ما يتعلق به، ثمَّ التعرض

لمفهوم الليل عند العرب في اللغة والاصطلاح، وهذين الأمرين (الشاعر من خلال شعره والليل) هما مما تقوم عليه هذه الدراسة، وتشكل من خلالهما أرضيتها، لذا وجب تخصيص هذا التمهيد حولهما.

أولاً: التعريف بالشاعر وشعره:

وقف الباحث على ترجمة الشاعر في عدد من المصادر، اختار منها ما أورده الزركلي في الأعلام؛ فهو "يحيى بن عبد الرحمن بن بقي الأندلسي القرطبي، أبو بكر: شاعر، من أهل قرطبة، اشتهر بإجادة الموشحات، وتنقل في كثير من بلاد الأندلس التماساً للرزق"³ فهو من مدينة قرطبة الأندلسية التي نشأ فيها ويُنسب إليها، ثم تجول في كثير من البلدان خارج الأندلس كان من أهمها المغرب.

وابن بقي القرطبي أحد شعراء الأندلس المغمورين نسبياً، رغم ما أبدعه من شعر رقيق في الغزل والمجالس والأوصاف، وامتاز شعره بالعدوبة والصفاء، وكثرة الصور الطبيعية، والحنين، والتغني بالحبیب، وقد عاش في عصر شهد اضطرابات سياسية، وهو عصر المرابطين الذي امتد (484 – 542هـ) ما ألقى بظلاله على شعره.

وتميز بإبداعه وتوظيفه لرموز الطبيعة- خاصة الليل- في شعره، وقد عكست صور الليل في إنتاجه الشعري الأجواء النفسية والاجتماعية لعصره، وجاءت امتداداً لتقاليد الشعر العربي في استحضار الليل كرمز للسكينة، أو الحزن، أو التأمل، أو غير ذلك من الحالات والانفعالات التي قد تمر بأي شاعر.

وقد برز ابن بقي وأجاد في فن "الموشحات"^{*} هذا اللون الأندلسي الذي يُحسب لتلك البقعة، وأولئك النفر من الشعراء والمبدعين "وفي أيام المرابطين ظهرت مجموعة من أعظم الوشاحين، في مقدمتهم الأعمى التطيلي وابن بقي وأبو عبد الله بن أبي الفضل بن شرف والأبيض وعلي بن مهلهل الجياني وابن باجة"⁴

وقد شاع هذا الفن واكتسب بصورته الفنية على أيدي عدد من الوشاحين والشعراء في عهد الأندلس ومنهم ابن بقي، إذ نجد "في النصوص الباقية من آثاره ما يدل على شاعريته وبراعته في فن التوشيح"⁵ بل إن لسان الدين ابن الخطيب (ت767هـ) افتتح كتابه (جيش التوشيح) بعدد من موشحاته إذ قال عنه "ربُّ الصنعة ومالكها، وناهج الطريقة المثلى وسالكها"⁶ وقال عنه ياقوت الحموي: "كان آية في النثر والنظم، بارعاً في نظم الموشحات مُجيداً فيها كل الإجادة"⁷ ويبدو أن براعة ابن بقي في هذا الفن ومع هذه الشهادات، لم تكن لتكتمل لولا تمكنه من توظيف

الطبيعة الكونية المُحيطة به، ومنها الليل وتجلياته النفسية والروحية والشاعرية في عدد من مقطوعاته وموشحاته وقصائده، وبالطريقة التي تخدم السياق والحالة التي يمر بهما الشاعر. ويُذكر أن ابن بقي قد تعرض خلال محطات حياته المختلفة لبعض المحن أو المعاناة، وحتى الغربة لأسباب عديدة، وهو ما عبّر عنه وصوره في مواضع كثيرة من مقطوعاته "وفيما وصل إلينا من الشاعر ابن بقي كثير من مظاهر التبرم والشكوى من الإجحاف بحقه أو من كساد سوق الشعر والأدب في زمانه ومكانه"⁸ ولا شك أن مثل هذه التحولات كان لها الأثر في نتاجه الشعري، وانفعالاته وتقلباته، وهو ما سينعكس على بعض تجليات الليل في أشعاره كما ستبين الدراسة، أما وفاته فكانت "سنة أربعين وخمسمائة"⁹.

ثانياً: مفهوم الليل لغة واصطلاحاً:

باعتبار الليل هو مادة هذه الدراسة الرئيسة، ومحور حديثها وبُحثها؛ كان لا بُدَّ من الوقوف على مفهومه ومعناه عند العرب، سواء المعنى اللغوي للكلمة أو المعنى الاصطلاحي، ليكون هذا التوضيح انطلاقة ومدخلاً لفهم ما بعده، والإحاطة به عند الحديث عن الليل خلال إجراء الدراسة.

أما ما يشير إليه الليل في اللغة، فقد ورد في لسان العرب أنه: "عقب النهار ويمتد من غروب الشمس حتى طلوع الفجر"¹⁰ وعند البحث في المعنى الاصطلاحي فإنه لن يبتعد كثيراً عن المعنى اللغوي، وقد فصل القرطبي (ت671هـ) أكثر من ذلك في حديثه عن الليل إذ قال: "زمن يطول أو يقصر بحسب موقعه من السنة، والليل أسبق من النهار فهو قبله في الرتبة، ولذلك وقع به التاريخ، والليالي أول الشهور والأيام تَبَعُ لها"¹¹ وبذلك يتضح أن مفهوم الليل لا يخرج عن تلك المدة الزمنية التي ترتبط بدايتها بغروب الشمس، وتنتهي بطلوع الفجر الصادق.

المبحث الأول:

الليل بوصفه مُلتقى المُحبين:

لا يكاد يبرأ شاعر من الولوج في باب الغزل والحب والهيّام، والتعبير عن هذه الحالة العاطفية، وتصويرها من خلال أشعاره ومقطوعاته، وبالتالي يقع المتلقي على كثير من تفاصيل تلك الوقائع والحالات ومتعلقاتها، وقد ارتبطت كثير من هذه التصويرات والتعبيرات بالليل؛ ذلك أن "هذه المنطقة من الزمان- أعني الليل- هي تكثيف شعري كالأطلال، فالزمنية في الليل باعتبارها موطناً للكشف الشعري أيضاً، وعند ذهاب العشاء ودخول الليل يواصل الشاعر الكشف"¹²

وهذا ما وجده الباحث في ثنايا بعض قصائد ابن بقي! إذ نجد الليل باعتباره موعداً للقاء الحبيب، وتفرغ المشاعر وتصويرها، واستغلال هذه الخلوة النفسية المسائية والعاطفية لبث مشاعر المحب ومغازلة المحبوب، كيف لا؟ ومعروف أن "السهر من أعراس المحبين، وقد أكثر الشعراء في وصفه، وحكوا أنهم رعاة الكواكب وواصفو طول الليل"¹³ لذلك كان ليل ابن بقي المقصود في هذا الجزء من الدراسة هو ليل الشاعر العاشق، والمُحب المُغازل، الذي يجمعه بمحبوبه، وقد تتبين ملامح هذا الأمر من خلال قوله في إحدى قصائده.

إذ يقول¹⁴:

بِأَبِي غَزَالٍ غَاوَلَتْهُ مُقْلَتِي ... يَبْنَ الْعُذْبِي وَبَيْنَ شَطِي بَارِقِ
وَسَأَلْتُ مِنْهُ زِيَارَةً تَشْفِي الْجَوَى ... فَأَجَابَنِي مِنْهَا بِوَعْدِ صَادِقِ
بُنَّا وَنَحْنُ مِنَ الدُّحَى فِي لُجَّةٍ ... وَمِنَ النُّجُومِ الزُّهْرُ تَحْتَ سُرَادِقِ
عَاطِيَتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ ... صَهْبَاءَ كَأَمْسِكِ الْقَتِيقِ لِنَاشِقِ
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِهِ ... وَذَوَابِتَاهُ حَمَائِلُ فِي عَاتِقِي
حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ بِهِ سِنَّهُ الْكَرَى ... زَحَزَحْتُهُ عَنِّي وَكَانَ مُعَانِقِي
أَبْعَدْتُهُ عَنْ أَضْلَعِ تَشْتَاقُهُ ... كَيْلًا يَنَامُ عَلَى فِرَاشِ خَافِقِ
لَمَّا رَأَيْتُ اللَّيْلَ آخِرَ عَهْدِهِ ... قَدْ شَابَ فِي لَمَمٍ لَهُ وَمَفَارِقِ
وَدَعْتُ مَنْ أَهْوَى وَقُلْتُ تَأْسُفًا ... أَعَزُّ عَلَيَّ بِأَنَّ أَرَاكَ مُفَارِقِي

تعكس هذه الأبيات مشهداً وجدانياً عميقاً تتداخل فيه حالة العشق مع رهافة الإحساس وجمال التصوير الشعري، وقد أورد ابن الأثير هذه الأبيات معلقاً عليها: "وهذا من الحسن والملاحاة بالمكان الأقصى، ولقد خفّت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصاً، والبيت الأخير هو الموصوف بالإبداع، وبه وبأمثاله أقرت الأبصار بفضل الأسماع"¹⁵ فالشاعر يصور لقاءه بمحبوبه في لحظة ليل ساكنة، يغمرها الحنين ويحيطها الحياء، ورغم شدة الشوق واللهفة، يظل القلب نقياً، لا يتورط في لذة مكتملة، بل يتراجع في لحظة التقارب القصوى، إثارةً للعبة وحفاظاً على سمو العلاقة، وتغلب على الأبيات نبرة رقيقة مشحونة بالعاطفة والوجد، ممشوقة بصور بلاغية بديعة، تجعل من اللقاء تجربة روحية أكثر منها جسدية، فيها من النور بقدر ما فيها من الظلام، ومن الاقتراب بقدر ما فيها من التمتع، وإن كان يظهر من الأبيات أن التراجع في لحظة التقارب القصوى مرده إلى النوم.

وابن بقي في هذه الأبيات، حاله حال الشاعر العاشق الذي لم يفوت ليله ليعيش تلك النسمات الليلية، ذلك أن "الليل ارتبط بتجربة العاشق؛ فالليل زمن الوصال، والعاشق يتجنب لقاء محبوبته أمام الرقباء، ويسعى للقاءها بعيداً عنهم"¹⁶ وإن لم يُصرح الشاعر بوجود الرقباء أو ما يُخشى رؤيتهم له، لكنه جعل الليل أنسب الأوقات للقاء بالمحوبة، شأنه في ذلك شأن كثير من الشعراء الذين جعلوا الليل ملاذاً لهم للقاء الحبيب.

وقد جاء الأسلوب مكسواً بالتلميح أكثر من التصريح، مما أكسب النص بُعداً جمالياً راقياً، وحفظ له توازنه العاطفي دون أن يسقط في الابتذال أو المباشرة، كما توزعت الصور الفنية بين التشبيه (كالمسك الفتيق) والاستعارة (الليل يسحب ذيله) وهي صور تنم عن حس مرهف وقدرة على تجسيد المشاعر الداخلية في مشاهد حسية نابضة بالحياة، تجعل القارئ يعيش اللحظة بكامل تفاصيلها، ويستشعر نسمات ذلك الليل الذي جعله ابن بقي قالباً لسكب هذه الدفقة العاطفية، وتلك المشاعر الحية في لقائه مع محبوبه.

وتتميز غزليات ابن بقي "برقة عواطفها وسلاسة تعابيرها وحسن اختيار ألفاظها"¹⁷ ولا غرابة في ذلك؛ فالليل بطبيعته وهدوئه وصفائه يُضفي إلى هذه الغزليات تلك الرقة والعدوبة، عدا عن ذلك النقاء النفسي والروحي خلال تلك الليالي، إذ إن "الفنان كلما دنا من الطبيعة كان أنقى وأصدق"¹⁸ وهذا مما يُلمس في ليل ابن بقي الذي تجلت ملامحه في الأبيات السابقة.

وقضية ارتباط الشاعر عموماً بالليل كانت دأب كثير من الشعراء السابقين واللاحقين، بل إنه لا يكاد شاعر يُغادر ليله ولياليه إلا وقد سكب فيه ما يلاقيه من أفكار وعواطف على اختلافها، فمنذ القدم "وعلاقة الشعراء بالليل موجودة، إذ إنها تندرج تحت معاني الإبداع الكتابي للنص الشعري عند أغلب الشعراء خصوصاً القدامى منهم، لسبب بسيط وهو أنه لا يوجد شيء غير الليل أنيس لهم في وحدتهم وهيامهم"¹⁹ فكان ابن بقي الشاعر الأندلسي قد عايش هذه العلاقة والارتباط بالليل، وكان أنيساً وغطاءً له في لحظات الهيام واللقاء بمحبوبه، ناهيك عما تفرضه الطبيعة الأندلسية بكل تفاصيلها على مثل هذه اللحظات، التي قد يُحرم منها شاعر أو مُحِب في مكان أو بيئة أخرى.

ومن خلال التنقيب في قصائد ابن بقي بحثاً وفحصاً، يبرز بعض الأبيات التي تخدم هذا الجزء من الدراسة، ويظهر فيها ليل ابن بقي الشاعر المُغازل المُحب، وتفيض فيه تلك العواطف الجياشة تجاه محبوبه.

إذ يقول²⁰:

مَنْ لِي بِهِ حَيْثُ لَا نَخْشَى مُرَاقِبَةً ... وَلَا نَبِيتُ مِنَ الْوَاثِي عَلَى وَجَلٍ
فِي لَيْلَةٍ لَا يَلِي الْمَرِيخُ مُدَّتَهَا ... وَلَا نُقِيمُ بِهَا إِلَّا عَلَى رُحْلِ

يلاحظ حالة الشاعر العاطفية في هذه الأبيات، وهي تصوير لإحدى الليالي التي يتمنى فيها لقاء محبوبه، ويعكس في ذات الوقت خوفه من الانكشاف للناس، وهذا يظهر بُعداً اجتماعياً للعرف السائد آنذاك في حساسية التقاء المحبين ليلاً أو خفية.

هذه التعبيرات والمشااعر التي يبدعها ابن بقي، جعلها في ليله، بل إنه لم يجد ملاذاً أكثر قرباً من هذا الليل الساكن، وتلك الليلة الصاخبة بالمشاعر والتمنيات، ليلة الشاعر العاشق، ولا شك أن ليل ابن بقي في حالته هذه تدخل في توظيف الليل ومكنوناته، "فالليل بما فيه من ظلمة حالكة، وغموض محير، وسكون شامل، يدفع بالشاعر عن طريق اللاوعي إلى الكشف عن ذاتيته، واستنطاقها، كما يؤثر في منهجه، إذ تستبد به الأفكار والظنون، وتسيطران على تفكيره"²¹ وابن بقي تفاعل مع هذه السكنات، التي كان نتاجها مثل هذه الحالة العاطفية الشعورية الليلية.

ومن خلال رصد هذه الحالة الليلية عند ابن بقي في بعض مقطوعاته وأشعاره، يتبين أن الشاعر في ذلك إنما يُعبر عن شيء اختلج صدره، وملأ قلبه، وفطر فؤاده، فهو الإنسان قبل الشاعر، والحساس قبل الواصف، ولكنه أجاد في توظيف الليل واختياره ليحيط بتلك الحالة العاطفية الغرامية، وهي ظاهرة تتكرر كثيراً عند الشعراء على مرّ العصور، كيف لا؟ والليل "مليء بالأسرار التي لا تُدرك، ومثار الأحلام"²² وفيما يبدو إصرار ابن بقي على اختيار الليل كموعِد للقاء والالتقاء بالحبیب ربما ناتج عن حالة من الخوف أو القلق المجتمعي الذي يعارض مثل هذه الأمور، وذلك يظهر من قوله: (لا نخشى مراقبة)! لذلك فهو يلجأ إلى الليل الساتر.

المبحث الثاني:

ليل الغربة والفقد والبعد:

بمتابعة التجوال بين قصائد ابن بقي القرطبي ومقطوعاته وموشحاته، نجد صورة أخرى، وحالة أخرى ليل بين جنبات قصائد الشاعر، وهذه الحالة تكمن في التعبير عن الغربة والفقد والشكوى والبعد عموماً، وابن بقي على وجه الخصوص يُتوقع منه مثل هذه الحالة؛ فهو "أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقلاله وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن كثيراً من الأبواب أغلقت دونه"²³ وفي هذا إشارة إلى مفارقتها لبلاده الأندلس في مرحلة من مراحل حياته، ومثل هذا الترحال، وهذه المفارقة والبعد عن الوطن والأهل والأحباب، لا بُدَّ أن يكون لها

صداها وانعكاسها في نتاج الشاعر الأدبي، وأي شاعر، فإذا كان الإنسان العادي ينتابه ما ينتابه من مشاعر جياشة، وعواطف وأحاسيس إذا وقع له ذلك، فكيف بشاعر أدواته وسلاحه ذلك النظم المعبر؟! إذن فإن ابن بقي "امتطى غارب الاغتراب، ووقف في البلاد على كل باب"²⁴ وهذا ما يتضح في بعض قصائد الشاعر، فقد وُجدت تلك النبرة الليلية التي تجرّ بالشكوى والفقد والغربة.

إذ يقول في إحدى موشحاته²⁵:

قَلْبِي شَجِي لَيْسَ يَخْلُو حُزْنًا ... طَرْفِي مُسَهَّدٌ لَيْسَ يَأْلَفُ الْوَسْنَ
يَا قَوْمَ مَاذَا جَنَاهُ بَصْرِي .. يُجَازِي بِطُولِ السَّهْرِ
فَالذَّنْبُ وَاللَّهُ غَيْرُ النَّظَرِ .. أَظُنُّهُ لَيْسَ بِالْمُغْتَفَرِ
فَلَيْسَ يَنْظُرُ لِلصُّبْحِ سَنًا ... وَاللَّيْلُ سَرْمَدٌ وَالتَّهَارُ قَدْ شَجِنَا
حَالُ الْغَرِيبِ كَمَا قَدْ حُكِيََا .. ذُلٌّ فَكَيْفَ إِذَا مَا هَوِيَا
يَا وَيْلَتَا أَنْ هَذَيْنِ بَيْنَا .. أَنَا الَّذِي بِهِمَا قَدْ بُلِيَا
أَيْنَ الْحَبِيبِ وَأَيْنَ الْوَطَنِ ... كِلَاهُمَا أَبْعَدُ فَلَا سَكَنَا
يَا سَاهِيَا عَنْ حُرْقَتِي ... مَا الْحِظُّ لِي مِنْكَ غَيْرُ الْأَرْقِ
أَبَاطِلُ مَا تَرَى مِنْ شَفَقِي .. فَسَدَّ عَيْنِي بَابُ الْفَلَقِ
فَإِنْ وَدَّكَ لِي قَدْ أَسَنَّا ... فَكَيْفَ أَجْعَدُ قَدْ بَدَا الَّذِي بَطَنَا
يَا قَوْمَ لَيْسَ عَجِيبًا أُمْرِي .. نَحَرْتُ صَبْرِي بَعِيدَ النَّحْرِ
أَمَّا دُمُوعُ جُفُونِي تَجْرِي كَأَنَّ عِبَابَ الْبَحْرِ

ويظهر في هذه الأبيات حرقه الشاعر وألمه ولوعته التي اجتمعت ما بين غربة عن الوطن وبعد عن حبيب، وبالتالي فإن ليله بل لياليه طالت، فهو سرمداً، وهذا معهود عند الشعراء، فيطول ليلهم مع مثل هذه المشاعر والحالات! "إذ يوقظ الليل آلام الشاعر وهمومه التي يزيد بها طول الليل"²⁶ وهذه الأبيات تتدفق فيها ومنها تلك الصورة والحالة لابن بقي، وفي ليله الطويل، وتدور فكرة الأبيات حول الغربة الوجدانية والاعتراب المكاني، وما يرافقهما من ألم الفقد، وحرقه البعد عن المحبوب، فالشاعر يعبر عن ذاته المتألّمة نتيجة ابتعاده عن وطنه وحبيبه، ويصف حاله كغريب أنهكت المسافات، وخذلت الأيام، وأثقل كاهله الحنين والحرمان، والجدير بالذكر في هذا السياق أن ابن بقي قد عايش حالات من الحرمان والاعتراب أثبتتها أهل التراجم

والمصادر، ومن ذلك ما أورده صاحب القلائد: "ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، فصار قعيد صهوات، وقاطع فلوات"²⁷ وهذا مما يُدعم رأي الباحث واختياره لحالة وصورة من حالات وصور الليل عند ابن بقي وهي (الغربة والفقد والبعد)؛ إذ من الطبيعي بمكان أن يرافق الإنسان خلال ترحاله وتنقله من مكان إلى آخر كثيرٌ من مشاعر الغربة والبعد عن وطنه وأهله، الأمر الذي انعكس في تجربته الشعرية المُعبّرة عن تلك الحالة.

وقد افتتح الشاعر حديثه في الأبيات السابقة بإبراز حالته النفسية؛ فقلبه مليء بالحزن، لا يعرف الفرح، وعينه لا تعرف النوم، ويتساءل بعدها بتعجب: هل ارتكب البصر ذنباً حتى يُعاقب بالسهر الدائم؟ فهو يرى السهر عقوبة صارمة! ويعترف بأن الذنب يتجاوز النظر، فهو ذنبٌ قلبي عميق لا يُغتفر، ويتابع ابن بقي برؤية تشاؤمية: لا نور صباح، بل ليل دائم، حتى النهار بات مصدراً للشجن.

والغربة كما يصورها ابن بقي في ذاتها دُلٌّ، فكيف إذا اجتمع معها فقد محبوب؟ وهنا يصرخ "يا ويلتاه"، فهو ابتلي بهذين: الحب والغربة! وهذا يعكس ازدواج المعاناة، فالغربة ليست مكانية بل عاطفية أيضاً؛ إذ الحبيب والوطن غائبان، وقد اجتمعا في البعد، فلا هدوء ولا قرار، ويتوجه للمحبيب: أنت غافل عن حرقى، وما جنيت منك سوى الأرق، ولا غرابة في هذه الحالة لابن بقي "فالليل هو ركون الشاعر في تأمل واسترخاء إلى تفريغ ما تختزنه مشاعره من هموم ومحن في محاوراة ذاتية"²⁸.

وما زال الشاعر في تجلياته الليلية، حتى يصل به الأمر أن الشفق في عينيه باطل، كأن الفجر لم يعد يفتح له أبوابه، فهو يخبر قومه بأن حاله لم يعد عجباً، وقد نحر صبره، لا في عيد النحر بل بعده، والمبالغة في الحزن صارت عادة، والدموع تنهمر كأنها أمواج البحر!

ويتضح أن ابن بقي في هذه الموشحة التي تضمنها هذا الجزء من الدراسة، قد أعطى الليل وأعطاها! بمعنى أن الليل بسكونه وطوله كما يشعر، قد أعطى الشاعر مساحة للتعبير عما يجول في صدره ووجدانه، وفي المقابل كسا ابن بقي الليل بهذه الحالة الشعورية، والصورة الفنية التي قد ترد عند كثير من الشعراء، لكن قلما تجتمع فيها غربة الوطن وغربة الحبيب وبُعدُه! لذلك فإن "معظم الشعراء يشكون من جراح الليل وهمومه وسكونه، ويصورون ذلك في قصائدهم بأعذب الصور، وهم في نفس الوقت شكواهم عبره"²⁹.

ولا شك أن إجادة ابن بقي في رسم الصورة، وبث الشكوى، والتعبير المُفضي إلى حالة الشاعر وما يعتريه، جعل له في المقابل صدًى عند المتلقين، وهذا ما أشار إليه شوقي ضيف: "وهذه

الألفاظ الغزلة المفرطة في السهولة وبما كانت تتضمنه موشحات ابن بقي من صور بديعة طارت شهرته في عصره وبعد عصره³⁰ وما يعني الباحث في هذا السياق، وهذا الجزء من الدراسة هو إظهار صورة الليل وشكله عند ابن بقي، والانطباع المتولد عن تلك الحالة أو على أثرها تبعاً للعوامل التي أشارت إليها الدراسة آنفاً؛ وهي غربة الشاعر وبعده عن محبوبه في مرحلة من مراحل حياته، ومحطة لها تبعاتها النفسية والفكرية.

المبحث الثالث:

البنية الفنية لصورة الليل في شعر ابن بقي القرطبي:

في هذا الجزء من الدراسة، سيكون تحليل بعض الأساليب الفنية التي استخدمها ابن بقي في تصوير الليل، بالإضافة إلى تقنيات اللغة التي ساعدت في تعزيز هذه الصورة الشعرية، من خلال بعض الشواهد الشعرية، وبما يؤدي الغاية والفائدة المرجوة من الدراسة، وتشتمل هذه الأساليب الفنية على الصور البيانية، والاستعارات، والتشبيهات، بالإضافة إلى اللغة الرمزية التي يختارها الشاعر لتقوية العلاقة بين الليل والوجدان أو حالاته وانفعالاته المختلفة.

إن استخدام ابن بقي للأدوات الشعرية البلاغية والفنية مثل الاستعارة والتشبيه، والصور البيانية عموماً كان محورياً في بناء صورة الليل؛ إذ لم يقتصر الليل على كونه مجرد سياق زمني، بل أصبح كائناً حياً يتفاعل مع حواس الشاعر، وقد تميزت بنية شعره بالإيقاع السهل الذي يساهم في نقل مشاعر الليل بكافة أبعاده العاطفية والوجدانية.

ويلاحظ أن ابن بقي يملك قدرة على استخدام الليل كعنصر فني ينبض بالحياة داخل بعض مقطوعاته، وهو ما دعا الباحث للوقوف على تجليات هذه القدرة والموهبة، وتمثل الصور البيانية أحد أوجه الجمال الفني في شعر ابن بقي، حيث يصور الليل بأبعاد تتجاوز الظلمة إلى التفاعل مع العواطف الإنسانية، وتعد الاستعارة والتشبيه أبرز الأدوات التي استخدمها الشاعر لتوضيح تأثير الليل على النفس، ومثال التشبيه في تصوير الليل، ما يلمس في قوله³¹:

أَمَا تَرَى اللَّيْلَ قَدْ أَلْهَيْتَهُ شَمْعًا ... مِثْلَ الْكَوَاكِبِ بَآنَتْ حَوْلَهُ حَرَسًا

الصورة في هذا البيت تعتمد على الجمع بين الحسي والرمزي؛ فالليل لا يبدو فراغاً مظلماً، بل يبدو كياناً حياً مهيباً تحيط به شموع متقدة، وهذه الشموع ليست مجرد أدوات إضاءة، بل يُشبهها الشاعر بالكواكب أو الأجرام السماوية العالية وهي مشرقة ذات دلالة كونية، ولعله يمكن ملاحظة المفارقة بين الليل الذي يفترض أن يكون مظلماً، ولكنه هنا مشتعل بالضياء، وتشبيهه

الكواكب بالحرس حول الليل يوجي بعظمة المشهد وروعته، وكأن الشاعر يرى الليل ملأً تحفً به الخُراس وتُحيط به لحمايته، وهم الكواكب، في دلالة على الحماية والهيبة. وقد استخدم الشاعر أسلوب الاستفهام التقريري في قوله "أما ترى الليل" بقصد لفت نظر المخاطب أو السامع إلى مشهد حي ماثل للعيان، ولا يمكن إنكاره أو تجاوزه أو حتى تهيمشه، بل إن استخدام هذا الأسلوب فيه إثارة وتشويق، وتحريض على الانتباه. أما قوله "قد ألهيته شمعاً" فيمكن أن تتكون فيه صورة تجمع بين التناقض والدهشة؛ إذ يصف الشاعر الليل- الذي هو موضع الظلمة والبرودة- بأنه مُلهب، ليس بالنار بل بالشمع، وهو عنصر يبعث الضوء الخافت والحرارة البسيطة التي لا ضرر منها.

ومثل هذا البيت من شعر ابن بقي، يمكن أن يُفهم على أنه لا يصف مشهداً طبيعياً فحسب، بل يُحمّل الليل فيه دلالة رمزية؛ فقد يكون الليل رمزاً للحزن أو الوحدة أو السكون، ولكن الشاعر يضيئه بالشمع، أي أنه يبني في هذا الظلام جمالاً ونوراً، في حين أن الكواكب قد تشير إلى الآمال أو شيء من التفاؤل الذي يرافق الشاعر في ظلامه، والخُراس يُشيرون إلى توفر الأمان والطمأنينة رغم ظلمة الليل، وهو ما يُظهر قدرة الشاعر على توليد الصورة ونظمها، بل وحبكها بطريقة فريدة ومؤثرة.

ويقف الباحث مع بنية فنية أخرى يجدها في مقطوعات ابن بقي، وقد تشكلت في قوله³²:

وَالنَّجْمُ مُنْهَزِمٌ أَوَّلَى كَتَائِبِهِ ... وَالصُّبْحُ يَغْسِلُ ثَوْبَ اللَّيْلِ مِنْ دَرَنِ

في هذا البيت من شعر ابن بقي، تتجلى صورة فنية إبداعية يرسمها الشاعر من خلال تأملاته وحالاته وانفعالاته التي تنعكس مباشرة للمتلقي من خلال ما يعاينه في مثل هذه النصوص، وبالوقوف على مكونات هذا المشهد، يُلاحظ تصوير الشاعر لحركة اختفاء النجوم تبعاً وبالتدرج، وكأنها كتائب وصفوف من الجيوش، وقد بدأت بالانسحاب والمغادرة من ساحتها! وقد عبّر عنها بقوله (والنجم منهزم أولى كتائبه) وهي صورة حسية ملموسة.

وفي المقابل، يبني ابن بقي صورة أخرى قد تكون أبدع وأروع في الوصف والإجادة من خلال الاستعارة والتشخيص؛ فقد جعل الصبح يغسل وكأنه إنسان! على سبيل الاستعارة المكنية، في دلالة على الاستبشار بقدوم هذا الصبح وبزوغه، وكأن ابن بقي كان مثقلاً في ليله بالهموم والأوجاع وغيرها مما جعل الليل طويلاً، فهو ينتظر الصبح ليتخلص من هذا الحمل الذي أثقل كاهله.

أما التشخيص فقد كان في قوله (ثوب الليل)؛ إذ جعل الليل ثوبًا وكأنه رجل، في إشارة إلى أن معظم ليل ابن بقي الذي وصفه، كان في تلك الحالة التي أثقلته وأهمته، كما أن الثوب يُغطي معظم البدن، وقد يقول قائل: وما الذي يُثبت أن ابن بقي في هذا البيت، وهذه الصورة كان مهمومًا وحزينًا ومثقلًا؟! والجواب يكمن في قول ابن بقي في البيت نفسه عند استعماله مفردة (يغسل) ومفردة (درن)؛ فالغسيل لا يكون إلا مما يعلق بالبدن أو اللباس مما لا يُقبل أو ينافي الطهارة أو لا تقبله النفس البشرية، ويؤكد ذلك مفردة (درن) التي تعني: "الوسخ"³³؛ فهي أشياء لا تُطاق، ولا يمكن التآلف والتوافق معها.

وابن بقي في صورته هذه يضع المتلقي في المشهد الليلي الذي عايشه، حتى كأنه أحد أجزاء الصورة، بل ويتفاعل معها من شدة اتقانها وبراعة رسمها، وهذا أمر لا يكون غريبًا على شاعر مرَّ بهذه الدفقة من المشاعر والتقلبات التي أثقلته حتى تمنى قدوم الصبح بما فيه من انجلاء للصدر والنفس والروح.

لذلك فابن بقي جعل الليل ركنًا رئيسًا، ومحورًا هامًا في بنائه الفني لمثل هذه الصور والمشاهد واللحظات الطويلة القصيرة، وهذا مما يُحسب لأي شاعر في مثل هذا السياق، وفي مثل هذه الإجازة الفنية، التي تؤتي ثمارها، وتُلقي بظلالها على النص الشعري عموماً، وتولد الأثر عند جمهور القراء والمتلقين.

ومع وقفة فنية أخرى، ومشهد إبداعي آخر، من مقطوعات ابن بقي! يستوقف الباحث هذان البيتان في الذخيرة، إذ يقول³⁴:

إِذَا مَا غُرَابُ اللَّيْلِ مَدَّ جَنَاحًا ... عَلَيَّ وَغَطَّانِي بِرَيْشِ قَوَادِمِ*
تَقَلَّبْتُ فِي طَيِّ الْجَنَاحِ لَعَلَّنِي ... أَرَى الصُّبْحَ يَبْدُو مِنْ خِلَالِ الْقَوَادِمِ

والتأمل لهذين البيتين، يكاد يلمس تلك الأدوات الفنية التي استخدمها الشاعر في تشكيل صورة الليل، بل وتصوير حالته النفسية العاطفية خلال هذا الليل، وأول ما يستوقف القارئ استخدام ابن بقي لمفردة (غراب) وإصاقها بالليل! وهي دلالة مباشرة وسريعة إلى حجم التشاؤم والتثاقل والنفور المتولد عند الشاعر في حالته تلك، وهذا يدخل في باب (التجسيد) الذي يستخدمه الشاعر كثيرًا في صوره الفنية، فالليل تمّ تجسيده كـ "غراب" يمد جناحيه، وهذه صورة مركبة تجمع بين الاستعارة التصريحية والتجسيد؛ فالشاعر لا يصف الليل مباشرة، بل يجعله طائرًا ماديًا ضخماً يغطيه بجناحه، مما يوحي بشدة الظلمة وكثافة الحزن، وقوله "غطاني

بريش قوادم" كناية عن غمر الهم أو الكرب الشديد، حيث أصبح تحت جناح هذا الليل الكئيب! وهنا تتجلى قدرة الكناية في التعبير عن الحالة النفسية دون تسميتها مباشرة. والشاعر بتوظيفه للاستعارة في هذه الصورة الفنية على وجه الخصوص، يكون قد تمكن من توصيل المعنى بل الحالة ككل إلى المتلقي بشكل ربما يكون أضمن وأوجز من التعبير المباشر الجامد! وهذا مما يُذكر من فوائد الاستعارة إذ إن "العقلاء يجزمون بأن الاستعارة أبلغ من الحقيقة"³⁵

ويستخدم ابن بقي هذه الأدوات والوسائل الفنية لإتمام صورته الليلية، التي يقصد من خلالها التعبير عن طول هذا الليل، وظلمته وأهواله، بل إن حالته تلك لم تكن في أول الليل أو آخره أو جزء منه ثم انقضت؛ ولكنها كانت طوال ليله لم تغادره، وبالتالي أحسن الشاعر توظيف أدواته الفنية في بناء صورة هذا الليل الذي يعتره.

وفي الجزء الآخر من الصورة الفنية والمشهد، يُظهر ابن بقي عدم مقدرته على النوم في هذا الليل الذي عبّر عنه، وذلك من خلال استخدامه للفعل (تقلبت) وهو اختيار مقصود في بناء الصورة للتعبير عن حالة الشاعر من عدم الراحة والتوافق النفسي مع تلك الكثافة من الظلمة والقلق، وما يعتره كإنسان يعايش مثل هذه التقلبات، فكان من الطبيعي بمكان أن يُمارق النوم عينيه، لكنه في الوقت ذاته ما زال ينتظر بزوغ الصباح، متأملاً بانفراجة تُزيح عنه ما أصابه طوال هذا الليل! وهذا يُلمس فنياً ودلالياً من خلال قوله (لعلني أرى الصباح يبدو) فترك الصباح على حاله لأنه لا إشكال له مع الصباح، فهو يقبله كما هو! بل يتمنى قدومه واقتربه، فكانت عملية تصوير لكيفية التقلب واختياره التقلب باستخدام الجناح أداة له، وجعل القوادم علامة على بزوغ الصباح.

لقد استخدم ابن بقي العديد من الأدوات الفنية لتصوير الليل بشكل فني وجمالي، إذ اعتمد على الصور البيانية، والتشبيهات والاستعارات والتجسيد في عدد من مقطوعاته المتعلقة بالليل؛ لتجسيد الليل كعنصر حي يشارك في الوجدان البشري، وبما يعزز المعنى الدلالي والتأملي الذي يُراد إبرازه، يُضاف إلى ذلك أن ظهور الليل في شعر ابن بقي القرطبي كان عنصراً محورياً في تصوير التجربة العاطفية، فكان تارةً يمثل زمان اللقاء والجمال، وأحياناً فضاءً للأنين والفقد، وقد جمع الشاعر بين الرؤية الحسية والرمزية لليل، ما أضفى على شعره عمقاً شعورياً ودلالة فنية تجذب السامع وتمره، وتجعله يُعايش الحالة في معظم تفاصيلها.

ومن جهة أخرى نجد في هذين البيتين "إشارات تدل على تأثر ابن بقي بشعراء العصر الأموي مثل قيس بن ذريح وجميل بثينة؛ إذ إن هذين البيتين مأخوذان من قول قيس بن ذريح (40-80هـ)³⁶:

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ لَوْنُكَ شَا حِبُّ وَأَنْتَ بِلَوَاعَاتِ الْفِرَاقِ جَدِيرٌ³⁷
أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ وَيَحْكُ نَبْيِي بِعِلْمِكَ فِي لُبِّي وَأَنْتَ خَبِيرٌ³⁸

ومثل هذا التأثير ليس غريباً على أي شاعر أندلسي طالع الشعر المشرق خلال جميع عصوره السالفة، ثم وافقه في بعض حالاته وأفكاره وخلجات صدره وتعبيراته.

والباحث في نهاية هذا الجزء من الدراسة، يؤكد أن ما تم الوقوف عليه من أبيات من شعر ابن بقي، هي على سبيل التمثيل لا الحصر! فالرجل لديه مقدرة فنية في بناء صورة الليل، والتنوع في الوسائل والأدوات بما يحقق الغاية والرسالة من هذا المشهد أو تلك الصورة على مستوى النص الشعري، أو المتلقي.

ومن جهة أخرى، فإن هذا الجزء من الدراسة لم يكن مخصوصاً بدراسة أسلوبية لما تم عرضه من شواهد، وإنما هي لمسات فنية استوقفت الباحث، واستحقت شيئاً من البحث والتحليل بما يخدم الجو العام للدراسة، ويؤدي الفائدة المرجوة منها في إظهار صور الليل وتجلياته عند ابن بقي القرطبي.

3- خاتمة:

أما وقد وصلت هذه الدراسة إلى خاتمتها وختامها! فإنه لا بُدَّ من الإشارة إلى أن مثل هذا الجهد وهذه الوقفات لا تعدُّ أن تكون إضافة معرفية في هذا الباب، وبصمة متواضعة في هذا الحقل، في حين أن شاعراً مثل ابن بقي يحتاج إلى مزيد من البحوث المكثفة التي تستنبط مكنونات أشعاره وقصائده، فكيف إذا كان منتتماً إلى شعراء الأندلس وأعلامها.

لكن هذه الدراسة في جميع محاورها، حاول الباحث جاهداً بما تيسر له، أن يعرض لأهم صور الليل التي تجلت في أشعار ابن بقي وتجلياتها، والبحث في أبرز الأدوات والأساليب الفنية التي وظفها الشاعر لإنشاء تلك الصور المختلفة لليل وتكوينها.

وطبيعي أن تتوصل الدراسة إلى مجموعة من النتائج، والتي يمكن عرضها كما يلي:
أولاً: يُعد ابن بقي القرطبي من أبرز شعراء الأندلس الذين صوروا الليل في أشعارهم.

ثانياً: تنوعت صور الليل في أشعار ابن بقي القرطبي ولم تستقر على صورة واحدة، فكانت موزعة بين ليل لقاء المحبوب والتغزل به أو ليل الغربة والفقد والشكوى والحنين. ثالثاً: عكست ملامح وتحولات صور الليل عند ابن بقي واختلافها تقلبات الحياة التي مرَّ بها الشاعر.

رابعاً: وظف ابن بقي الأساليب والأدوات الفنية ما بين استعارة وتشبيه وكناية لبناء صور مُبدعة ليل ومُعبرة عن الحالة التي عايشها. خامساً: استطاع ابن بقي أن يجعل من الليل وأحواله مسرحاً وقالياً لسكب دفقاته الشعورية والشاعرية، وحالاته النفسية والعاطفية، وهمومه وما يعانيه، مما أكسب النص جمالاً تصويرياً وفنياً، وانعكس على المتلقي الذي يقرأ وكأنه يعايش الحدث.

المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: بدوي طبانة وأحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2، 1960.
2. الأصفهاني، العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر- قسم شعراء المغرب والأندلس، تج: آذرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1986.
3. البيومي، محمد رجب، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير، الدار العربية للكتاب، القاهرة، دط، 2007.
4. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي، طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف، تج: عبدالحق التركماني، دار ابن حزم، بيروت، ط2، 2013.
5. الحموي، شهاب الدين ياقوت، معجم الأدياء، تج: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993.
6. ابن خاقان، الفتح بن محمد، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تج: حسين يوسف، مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1989.
7. ابن الخطيب، لسان الدين، جيش التوشيح، تج: هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، دط، دت.
8. الدليمي، سمير، الصورة في التشكيل الشعري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دط، 1990.
9. الرازي، فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تج: نصرالله حاجي، دار صادر، بيروت، ط1، 2004.
10. الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002.
11. الزيات، أحمد حسن، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1967.
12. ابن سعيد، علي أبو الحسن، رايات المُبَرِّزين وغايات المُبَيَّنِّين، تج: محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987.
13. ابن سناء الملك، أبي القاسم، دار الطراز في عمل الموشحات، تج: جودة الركابي، دار الفكر، بيروت، ط3، 1980.

14. الشببي، محمد رضا، أدب المغاربة والأندلسيين، دار اقرأ، بيروت، ط2، 1984.
15. الشنتري، أبي الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1997.
16. ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعارف، مصر، ط1، 1995.
17. عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1978.
18. فوغالي، باديس، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط1، 2008.
19. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط8، 2005.
20. القرطبي، أبو عبد الله محمد، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم طيفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964.
21. قيس بن ذريح، الديوان، تح: عبدالرحمن المصطفاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2004.
22. المقرئ، شهاب الدين أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1997.
23. ابن منظور، جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
24. هلال، محمد غني، الرومانتيكية، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1971.

الدراسات والدوريات:

1. الزراع، عائشة بنت عودة، صورة الليل في شعر غازي القصيبي، مجلة كلية دار العلوم، ع90، 2016.
2. السعيد، محمد مجيد، ابن بقي القرطبي: حياته وشعره، مجلة المورد، بغداد، مج7: ع1، 1978.
3. عامر، شارف، أثر الشعر المشرقي في شعر ابن بقي الأندلسي، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، مج21: ع1، 2021.
4. علي، محمد محمود، صورة الليل في شعر صلاح عبدالصبور، ضاد- مجلة لسانيات العربية وآدابها، مج3: ع5، 2022.
5. يعقوب، عبدالكريم، ولجين البيطار، صورة الليل في شعر العرجي، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية-سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج36: ع4، 2014.

الهوامش:

- 1 نُشرت هذه الدراسة في مجلة المورد، بغداد، مج:7، ع:1، 1978، ص125-152.
- 2 نُشرت هذه الدراسة في مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2021، مج: 21، ع: 1، ص962-981.
- * يُنوه الباحث إلى أنه يوجد كتاب بعنوان: ديوان ابن بقي الأندلسي، جمعاً ودراسةً، للباحثة: انتصار خضر الدنان، طباعة دار الكتب العلمية 2012، ولم يتمكن من الحصول على نسخة مطبوعة أو إلكترونية، رغم التواصل مع دار النشر المذكورة، مما اضطر الباحث إلى جمع قصائد الشاعر المطلوبة من المصادر المذكورة.
- 3 الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط15، بيروت، دار العلم للملايين، 2002، 8\152.
- * الموشحات: فن من فنون الشعر العربي المستحدثة في بلاد الأندلس يختلف عن القصيدة التقليدية في قوافيه المتعددة، وأوزانه المتنوعة، عرّفه ابن سناء الملك بأنه: كلام منظوم على وزن مخصوص، وهو يتألف في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات ويقال له التام، وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع. يُنظر: ابن سناء الملك، أبي القاسم، دار الطراز في عمل الموشحات، تح: جودة الركابي، دار الفكر، بيروت، ط3، 1980، ص32.
- 4 عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ط5، بيروت، دار الثقافة، 1978، ص223.
- 5 ابن سعيد، علي أبو الحسن، رايات المبرزين وغايات المميزين، تح: محمد رضوان الداية، ط1، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1987، ص136.
- 6 ابن الخطيب، لسان الدين، جيش التوشيح، ص2.
- 7 الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، 6\2821.
- 8 الشيبني، محمد رضا، أدب المغاربة والأندلسيين، ط2، بيروت، دار افرا، 1984، ص88.
- 9 الحموي، شهاب الدين ياقوت، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1993، 6\2821.
- 10 ابن منظور، جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، ط3، بيروت، دار صادر، 1414هـ، 11\607.
- 11 القرطبي، أبو عبدالله محمد، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم طغيث، ط2، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1964، 2\193.
- 12 الدليمي، سمير، الصورة في التشكيل الشعري، دط، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1990، ص133.
- 13 ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي، طوق الحمامة وظل العمامة في الألفة والألاف، تح: عبدالحق التركماني، ط2، بيروت، دار ابن حزم، 2013، ص179.
- 14 الأصفهاني، العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر-قسم شعراء المغرب والأندلس، تح: آذرتاش آذر نوش، ط2، تونس، الدار التونسية للنشر، 1986، ص236-237. ويُنظر: المقرئ، شهاب الدين أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، ط1، بيروت، دار صادر، 1997، 4\237.
- 15 ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: بدوي طبانة وأحمد الحوي، ط2، القاهرة، دار نهضة مصر، 1960، 2\ص30.
- 16 أبو علي، محمد محمود، صورة الليل في شعر صلاح عبدالصبور، ضاد-مجلة لسانيات العربية وآدابها، 2022، مج:3، ع:5، ص69.
- 17 السعيد، محمد مجيد، ابن بقي القرطبي: حياته وشعره، مجلة المورد، بغداد، 1978، مج:7، ع:1، ص127.
- 18 الزيات، أحمد حسن، دفاع عن البلاغة، ط2، القاهرة، عالم الكتب، 1967، ص59.
- 19 الزراع، عائشة بنت عودة، صورة الليل في شعر غازي القصيبي، مجلة كلية دار العلوم، 2016، ع90، ص386.

- 20 الشنتري، أبي الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دط، بيروت، دار الثقافة، 1997، ق2، ص629.
- 21 يعقوب، عبدالكريم، ولجين البيطار، صورة الليل في شعر العرجي، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية-سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، 2014، مج:36، ع:4، ص243.
- 22 هلال، محمد غنيمي، الرومانتيكية، ط1، القاهرة، دار تحفة مصر، 1971، ص157. (بتصرف)
- 23 ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات الأندلس، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1995، ص157.
- 24 الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، 6\2821.
- 25 ابن الخطيب، لسان الدين، جيش التوشيح، تح: هلال ناجي، دط، تونس، مطبعة المنار، دت، ص12.
- 26 علي، محمد محمود، صورة الليل في شعر صلاح عبدالصبور، ص68.
- 27 ابن خاقان، الفتح بن محمد، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح: حسين يوسف، ط1، الأردن، مكتبة المنار، 1989، ص919.
- 28 فوغالي، باديس، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ط1، عمان، جدارا للكتاب العالمي، 2008، ص132.
- 29 الزراع، عائشة بنت عودة، صورة الليل في شعر غازي القصيبي، ص389.
- 30 ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات الأندلس، ص160.
- 31 الأصفهاني، العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر-قسم شعراء المغرب والأندلس، ص244.
- 32 الشنتري، أبي الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، ص619.
- 33 الفيروزيآبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص1195.
- 34 الشنتري، أبي الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، ص626.
- * القواد: أربع ريشات في مُقَدِّم الجَنَاح، الواجِدَةُ قَادِمَةٌ، يُنْظَر: لسان العرب (مرجع سابق): 12\469.
- 35 الرازي، فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: نصرالله حاجي، ط1، بيروت، دار صادر، 2004، ص134.
- 36 عامر، شارف، أثر الشعر المشرقي في شعر ابن بقي الأندلسي، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2021، مج:21، ع:1، ص962-981.
- 37 قيس بن ذريح، الديوان، تح: عبدالرحمن المصطفى، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2004، ص81.
- 38 المرجع السابق نفسه، ص77.

The Imagery of Night in the Poetry of Ibn Bāqī al-Qurṭubī (A Descriptive-Analytical Study)

Abstract

The present study investigates the imagery of *night* in the poetry of Ibn Bāqī al-Qurṭubī, with particular attention to the fluctuations, transformations, and artistic strategies through which this image is rendered. Employing a descriptive-analytical approach, the research surveys and interprets a selection of the poet's verses, seeking to uncover the configurations of the night as shaped by the poet's psychological and emotional states.

The findings reveal that the night in Ibn Bāqī's poetry appears in multiple and shifting forms, never confined to a single fixed representation. Moreover, the poet demonstrates a refined ability to employ the night—as an encompassing natural element—to articulate his inner emotions, personal experiences, and affective responses.

Keywords: Andalusian poetry; Ibn Bāqī al-Qurṭubī; night imagery.